البـــاب الثـــاني

مناهج الباحثـــين في الاقتصاد الإسلامي

مقـــدمـــــة :

في هذا الباب نعرض نماذج من مناهج الباحثين في الاقتصاد الإسلامي، وهذه النماذج حرصنا ان تكون مطابقة لواقع العصر الذي نوقشت فيه ما أمكن ذلك ايمانا منا بأن الاقتصاد الإسلامي وان كان يدرس ما يجب ان يكون فانه يدرس ايضا ما هو كائن.

ولهذا نرى ان المذهب الاقتصادي الإسلامي لابد ان يتجه في بحثه اتجاهان : اتجاه لدراسة ما هو كائن، واتجاه لدراسة ما يجب أن يكون.

وقد حصل هذا من علماء المسلمين، فالمدرسة الأولى مثلها المقريزي[1] في كتابه الجيد « كشف الغمة » حيث درس فيه الظواهر الاقتصادية في عهده في مصر وفي مدينة القاهرة بالذات .

ومثل المدرسة الثانية الغزالي الذي درس النقود وأولويات الانفاق والضرائب وسلوك المستهلك وغيرها من المسائل الاقتصادية على النحو الذي يجب أن تكون عليه.

والذي نؤكده ان على الباحث في الاقتصاد الإسلامي، ان يدرس الاتجاهين كليهما فيدرس ما هو كائن فعلا لاستنتاج الواقع ومعرفة الأسباب الاقتصادية وليصف ويشخص الأخطاء التي نبعت حين التطبيق، وذلك ليهيئها للكيفية التي يجب ان تكون على الطريقة الشرعية الإسلامية والتي تناسب روح الإسلام.

---

(١) انظر دراستنا عنه في الباب الثاني.

وقد وفق الى مزج المدرستين شيخ الإسلام ابن تيمية، فدرس شئون عصره كلها بما في ذلك الأمور الاقتصادية دراسة وافية، ثم عرض رأي الإسلام فيها بدراسات مستفيضة ذات نفس طويل وعلم جم ومحاوره جيدة، عرض وجهة النظر الإسلامية من خلال اجتهاده أولا ومن خلال وجهة نظر الفقه المقارن وظهرت شخصيته في ذلك اماما مستقلا حرا في بحثه.

وقبل ان ندخل هذا الباب، رأينا أن نأخذ نماذج مختصرة من كل عصر نكتبه كمقدمة له حتى تكون بمثابة المدخل للعصر والمفتاح الذي يرشدنا الى ما نهدف اليه في دراستنا.

فقبل أن نختار الشخصيات التي أضفينا فيها البحث قدر ما تسمح الرسالة، كتبنا كلمات وجيزة عن بعض الشخصيات التي كنا نود أن تكون ضمن الدراسات المطولة .

ولكن لعل في هذه الاشارات ما يحفز غيرنا لمتابعة الدراسة عن هؤلاء الذين أشرنا اليهم ومن تركناهم أكثر، ولعل هذا لا يكون قصورا في رسالتنا بقدر ما يكون عذرا لنا في أن الموضوع واسع جدا يدخله من شاء.

فإن كتبنا عن محمد بن الحسن الشيباني فانما نشير إلى أهم أثر له وهو كتابه الكسب الذي كان ضمن المكتبة الاقتصادية الأولى والذي أودع فيه نظريات الإنفاق وضوابطه على مستوى الدولة وعلى مستوى الفرد، وجعلنا هذا نموذجا فقط لفترة بيد أن آراءه الاقتصادية الاخرى تنشر ضمن مؤلفاته التي قال عنها بعض العلماء انها بلغت تسعمائة وتسعين كتابا وهذا رقم مبالغ فيه جدا ولا نستطيع الاخذ به إلا إذا اعتبرنا أن كل كتاب عنوان لفصل من فصول كتبه كما هي طريقتهم في التأليف بتسمية الباب كتابا كما فعل البخاري في صحيحه وغيره من العلماء رحمهم الله.

وعرضنا فقط القاء بعض الأضواء للباحث بعدنا، ليدخل مدرسة محمد بن الحسن الاقتصادية فيفيض من علمه الجم ويفيد من بعده.

وهكذا شأننا في الدراسات الموجزة أمام كل عصر، وغرضنا من ذلك أن ندلل على أن علماء المسلمين أثروا المكتبة الاقتصادية الإسلامية بالأفكار

الجيدة، ولم يبق على الباحثين المتخصصين في هذا العصر الا أن يضموا هذه البحوث بعضها الى بعض حتى تصبح ـ باذن الله ـ مكتبة متخصصة يستفيد منها المسلمون في كل حين.

ونقطة أخرى وهي أنني لاحظت أن علماء الاقتصاد الإسلامي من الرعيل الأول ليسوا جميعا من علماء الشريعة أي المتخصصين بالدراسات الفقهية والدراسات الإسلامية بجميع فنونها، بل انهم من جملة العلماء في كل فن، فمنهم أساتذة البلاغة والأدب والرياضيات والفلسفة والطب كابن سينا والبيروني والحريري والجاحظ وغيرهم من الأساتذة الذين أعجبتهم النظريات الاقتصادية الإسلامية ذات المساس بالمجتمع فكتبوا في ذلك عن رغبة وعلم وما كتبوا سوى خطرات وتهويمات اصبحت في يوم ما بعد ذلك نظريات اقتصادية لها اهميتها في علم الاقتصاد أو بمعنى ادق في الفكر الاقتصادي.

فعندما نشير للجاحظ الأديب أو عن بشر الحافي من الصوفية أو عن البيروني الرياضي وغيرهم فانما لنشير إلى أن الباحث في الاقتصاد الإسلامي يجب عليه ألّا يقصر بحثه عند علماء الشريعة فحسب بل عليه أن ينتقل الى العلماء المسلمين الآخرين في كل فن ذلك لأن علم الاقتصاد له علاقة بكل فن وعلماء المسلمين أنفسهم من ذوي التوسع في كل فن، فيجب الّا تحرم المكتبة الاقتصادية الإسلامية من هذه الأفكار الجيدة فهي جديرة بالتسجيل ولفت النظر.

وأضيف القول بأنني كباحث أرى ـ ومن وجهة نظري ـ أن الاقتصاد الإسلامي تناولته أقلام كثيرة أغلبها غير متخصصة في الشريعة وبعضها غير متخصص في الاقتصاد، واستمرت هذه المشكلة حتى الآن وهذا ما جعل النظريات الاقتصادية الإسلامية لا تأخذ الشكل الحقيقي من الدراسة الحقة المتخصصة.

نريد أن نقول إن ذلك يقتضي الاهتمام كل الاهتمام بهذه الدراسات المبعثرة في بطون الكتب حتى نخرج النظرية الاقتصادية الإسلامية إلى حيز الوجود حسب اجتهاد كل باحث.

ولعل هذه النتيجة تنتهي بنا الى صحة القول بأن البحث في الاقتصاد

الإسلامي لايزال من أصعب الأمور إذ علينا استعراض كتب هؤلاء العلماء كلهم حسب تخصصاتهم والتتبع الطويل والاستقراء المتواصل لهذه الكتب حتى نفيد ونحصل على مكتبة اقتصادية إسلامية مستقلة.

من أجل هذا نقول إن المكتبة الاقتصادية الإسلامية لاتزال فقيرة، بيد أنها من أغنى المكتبات على الوجه الصحيح ولكن تشتت بحوثها في مختلف العلوم الأخرى والفنون جعلت هذه المكتبة لاتزال بحاجة الى الباحثين الذين يستخرجون كنوز العلماء ويصنفونها وهي مهمة جليلة.

ويتفق معي الباحثون ان مكتبة الاقتصاد الإسلامي لاتزال بحاجة الى المزيد من التخصص والمنهجية والثقافة الواسعة العالية والتي ترتفع على مستوى الثقافة العادية.

ولهذا نعرض في هذا الباب الثاني نماذج من الباحثين الذين اخترناهم ويمثلون عصور الاجتهاد وما بعد الاجتهاد والعصر الحديث وعرضنا لهؤلاء لم يكن سوى عرض سريع لبعض أفكارهم وحرصنا كل الحرص على استيفاء الحديث عن المنهج الذي سار عليه كل واحد منهم في الدراسات الاقتصادية وذلك حسب المستطاع.

ودراستنا في هذا الباب اتسمت بالدراسة الفقهية المقارنة، حاولنا قدر الجهد ان نربط ونوازن ببحث الأفكار الاقتصادية الإسلامية مع الاقتصاد الفني وبذلك يظهر سبق علماء المسلمين في الدراسات الاقتصادية.

واذ كان الموضوع طويلا فقد اخترنا شخصية كشخصية ابي الفضل الدمشقي الذي كتب عن الدراسات الاقتصادية الفنية البحتة وهو موضوع التجارة حتى سماه السيد عاشور أبا الاقتصاد العربي. وأبو حنيفة مثلا تخصص في دراسة العقود التجارية فعرض العرف التجاري في بحوثه ونص أكثر مذهبه الاقتصادي على هذا. وقدم ابن تيمية وصفا كاملا لواقع الاقتصاد الإسلامي في عهده وأبدى الحلول.

وهكذا حاولنا عند اختيارنا للشخصيات التنويع في الاتجاهات لاسيما ونحن نقطع رحلة طويلة تحتل جميع عصور الاقتصاد الإسلامي.

وكان لزاما علينا ونحن نعيش في هذا العصر ان نرى نموذجا من مطبقي الاقتصاد الإسلامي في هذا العصر أو على الاصح من مطبقي نموذج منه فوجدنا إن شخصية الدكتور أحمد النجار خير مثال لذلك مع أنه مسبوق إلى ذلك من الناحية النظرية وقام هو بمحاولة التطبيق ووفق إلى ذلك .

وإدخالنا للمستشرقين في الرسالة لأنهم يمثلون اتجاها معينا في الدراسات الاستشراقية ولأن لهم بحوثاً وأفكاراً ضافية في هذا المجال كما انهم كثيرا ما يعطون الرأي في رجال الفكر الإسلامي، فلهذا أحببنا أن نشير اليهم ضمن هذه الرسالة للفت نظر الباحثين الى أهمية دراساتهم والقاء النظرات حولها وتصحيح المسارات الخاطئة في دراساتهم.

أبــو ذر الغفــارى :

صحابي جليل اشتهرت عنه آراء خاصة في بعض المسائل المالية، وكانت له مواقف مع أمير المؤمنين عثمان بن عفان وهذه الآراء التي جعلت بعض الكتاب المحدثين يصفون أبا ذر بأنه مفكر اشتراكي[1].

وإن الجوانب الشخصية لأي إنسان لمما تلقي كثيرا من الضوء على آرائه ، وهذا الترابط بين شخصية الانسان وآرائه يظهر بشكل واضح لدى أبى ذر رضي الله عنه.

فلقد تميزت شخصيته بالشدة والجفاء والبأس والقوة والاندفاع فلم يكن يهاب أحد ولو أدى الى الاضرار به.

ومن أبرز صفاته الزهد في الدنيا والتطلع الى الآخرة لان الدنيا في نظره لا تساوي شيئا حتى قال عنه الرسول ﷺ « من سره ان ينظر الى زهد عيسى عليه السلام فلينظر الى أبى ذر »[2].

---

(١) منهم الاستاذ / عبد الحميد جودة السحار في كتابه ابو ذر الغفارى / طبع مطبعة نهضة مصر بالفجالة انظر ص ٣٩.

(٢) انظر طبقات ابن سعد جـ ٤ ص ١٦٨ .

منهجـــه :

كان منهجه في الحياة والكسب ان لا يتناول الا الأشياء الضرورية التي تكفيه وان لا يزيد عليها لانه سوف يحاسب على هذه الزيادة، قال مرة وقد سئل عن هذا الاتجاه وعمّا يملك : مالنا الا ظل نتوارى به، وشويهات من الغنم تروح علينا، ومولاة لنا تصدقت علينا بخدمتها، ثم إني لأتخوف الفضل[1].

وقد أدرك النبي ﷺ بُعْدَ شخصية أبى ذر وعرف عناده واندفاعه في الحق، وفيما يؤمن به من مبادئ سأله مرة : كيف أنت اذا كان عليك امراء يستأثرون بالفيء فقال أبو ذر : « اذن والذي بعثك بالحق أضرب بالسيف حتى ألحق بِكَ فقال له عليه السلام أفلا أدلك على خير من ذلك ، اصبر حتى تلقاني »[2].

ولا شك ان هذا المنهج خاص بأبى ذر رضي الله عنه والا فعلى المسلمين ان ينصحوا الأمراء ويردوهم الى طريق الحق اذا حادوا عنه.

ونرى ان سبب ميله الى هذا المنهج ما سمعه من الرسول ﷺ يقول : « أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمون ان كل مسلم أخ للمسلم والمسلمون اخوة فلا يحل لامرئ مسلم من أخيه الا ما اعطاه عن طيب من نفسه فلا تظلمن انفسكم »[3] وما شاهده من رسول الله ﷺ وهو يوزع الأموال من عشور وجزية على المسلمين بالتساوي ويأخذ خمس الغنيمة ليوزعها على ذوي القربى، ورأى الخليفة الأول يفعل ذلك، ثم شاهد عمر بن الخطاب وقد مرّ بالخدم وهم وقوف لا يأكلون مع سادتهم وقال لسادتهم مالقوم يستأثرون على خدامهم ثم دعا الخدم فأكلوا مع السادة في جفان واحدة.

فأبو ذر في حياته وفيما يعرفه من احكام الدين ومن حياة الرسول ﷺ وما تلاه في القرآن من النهي عن المنكر في سورة التوبة فقد كانت تتمثل أمام ناظريه

---

(١) كتاب الزهد للامام احمد بن حنبل ص ١٤٧، وانظر صفة الصفوة لابن الجوزى ص ٢٤٢.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٤ ص ١٦٦ .

(٣) ذكر في الطبقات نماذج من هذه الخطب انظرها في جـ ٤ ص ١٦٨.
وفي صفة الصفوة جـ ١ ص ٢٤١ وما بعدها.

امثلة الزهد والايثار والاخاء والمساواة فلم يتطاول غني على فقير، ولم يتكاثر مسلم بمال، ولم تخزن الأموال في بيت مال المسلمين ولم يعط قريب أو صديق ما يزيد على حقه وشاهد آثار ذلك على المسلمين حيث رفت عليهم السعادة واطمأنت نفوسهم الى ثواب الله وهدايته.

رأى أبو ذر كل ذلك فاستقر في ذهنه انه لا يجوز ان يبقى مال في بيت مال المسلمين بل يجب انفاقه في سبيل الله وتوزيعه على الفقراء المحتاجين، وانه يجب ان تتقارب الناس في حياتهم، وتوفر وسائل العيش لديهم، فلا يجوز ان ينعم افراد بالاموال الوفيرة والقصور الشامخة بينما يعيش آخرون في شظف من العيش وخشونته، ولا يجوز ان يدخر الانسان مالا متى حصل عليه بل يأخذ حاجته ثم يوزع ما فضل على المحتاجين وكان هو يفعل ذلك فلم يكن يبقى في بيته شيء يزيد على حاجته[1].

دعوتــه الى اتجاهــه :

أولاً ـ لم يكتف أبو ذر برأيه فقط وقصره في التطبيق على نفسه فحسب بل نشر رأيه وأعلنه أمام الناس والولاة فحين انتقل أبو ذر الى الشام انتقل بأفكاره وآرائه وشاهده محمد الرسول ﷺ وصحابته الاخيار، فرأى الشام تختلف عن المدينة تماما، اذ رأى الأمراء يسكنون القصور ولديهم الحجاب وعليهم اللباس المترف، شاهد أبو ذر كل هذا فاعتبره خروجا عن مألوف ما شاهده في المدينة، واعتبره أيضا خروجا عن الإسلام حسب رأيه فتحركت طبيعته الاندفاعية فلن يسمح لهؤلاء الأمراء بهذه التصرفات بل عليه أن يبدي رأيه ويقف في وجوههم رافعا السيف ويعلم انه اذا كانت طاعتهم واجبة كما أوصاه الرسول ﷺ فلا أقل من ان يؤدي واجب مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن لم يُجْدِ شيئا فلم يلق أذنا صاغية، فتحول الى وعظ المسلمين الأغنياء منهم والفقراء على حد سواء ومن وعظه : يا معشر الأغنياء واسوأ الفقراء بشر الذين يكتنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم

---

(١) قارن بما كتبه الدكتور محمد فاروق النبهان في كتابه الاتجاه الجماعي في التشريع الاقتصادي ص ٤٣٧ وما بعدها دار الفكر بدمشق سنة ١٩٧٠.

وظهورهم[1] ومن قوله أيضا : ياكانز المال اعلم ان في المال ثلاثة شركاء القدر وانت والوارث فالقدر يذهب بخيرها وشرها، والوارث ينتظر ان تضع رأسك ثم يستاقها وانت ذميم، وانت الثالث فان استطعت ألاّ تكون أعجز الثلاثة فلا تكونن[2].

كان يحمل كل هذه الافكار بنفس الحماس ورغبته في التطبيق فذهب من توه الى معاوية أمير الشام فقال له : يا معاوية ما يدعوك الى أن تسمي مال المسلمين مال الله، قال يرحمك الله يا أبا ذر قال أبو ذر فلا تقله قال معاوية : فاني لا أقول أنه ليس لله ولكن سأقول مال المسلمين[3].

ولما رأى معاوية شدة أبى ذر وتأليبه للناس وخطبه في مساجد الشام كتب الى الخليفة في المدينة قائلا : ان أبا ذر قد أعضل بي[4]، وكان من أمره ما كان، قال عثمان مجيبا له : ان أرسله الى المدينة فلما قدمها ودخل على الخليفة قال له عثمان : ما لأهل الشام يشكون ذربك[5] فأخبره أنه لا ينبغي أن يقال ان المال مال الله ولا ينبغي للاغنياء أن يقتنوا مالا فقال ياأبا ذر عليّ أن أقضي وآخذ ما على الرعية ولا أجبرهم على الزهد، وأن أدعوهم الى الاجتهاد والاقتصاد[6].

وعندئذ عرض عليه الخليفة الاقامة في المدينة، أو في الربذة قرب المدينة فاختار الربذة ومات بها (رضي الله عنه).

أثـــر اتجاهـــه :

أولاً : رأى استاذنا الدكتور الفنجري أن الرأي الذي نادى به الصحابي أبو ذر الغفاري فترة خلافة سيدنا عثمان بأنه لا يجوز لمسلم أن يمتلك أكثر من حاجته يعتبر اجتهادا اسلاميا صحيحا في الظروف غير العادية التي مرت بها الأمة

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزى جـ ١ ص ٢٤١.

(٢) يشير الى آية الكنز (والذين يكنزون الذهب والفضة) الآية سورة التوبة ٣٤.

(٣) تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٣٣٥.

(٤) أي ضيق على وشدد في الأمر.

(٥) ذربك : أي سلاطة لسانك.

(٦) تاريخ الطبري جـ ٢ ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦.

الإسلامية حينئذ وأخصها ظهور فئات ممعنة في الغنى والترف بينما الكثيرون يعانون الفقر والحرمان، فالإسلام لا يسمح بالغنى الا بعد كفالة حد الكفاية لكل مواطن ولا يتصور التفاوت في الدخول الا بعد ازالة الفقر والقضاء نهائيا على الحرمان والجوع، ولم يكن يعيب أبا ذر الا المغالاة ومحاولة تعميم هذا الاتجاه مدعيا أن هذا هو حكم الإسلام في كافة الظروف في حين أنه لا يعبر عن حكم الإسلام الا في الظروف غير العادية بحيث لا يلجأ اليه الا استثناء كعلاج مؤقت وبقدر الضرورة، الأمر الذي عبر عنه عمر بن الخطاب بقوله : « انى حريص على ألاّ أدع حاجة الا سددتها ما اتسع بعضنا لبعض فاذا عجزنا تآسينا في عيشنا حتى نستوي في الكفاف »[1].

ثانياً : وينتهي الدكتور النبهان[2] ونحن نتفق معه في بعض الرأي الى أن أبا ذر لا أثر له في الحياة العملية والتطبيق الفعلي لما يلي :

أ ـ طلب أبو ذر من معاوية استبدال كلمة مال الله بمال المسلمين، وكان هدفه تذكير المسلمين ومعاوية ان هذه الأموال ملك للمسلمين جميعا لا يتصرف فيها الحاكم حسب رأيه وهواه بل يتصرف حسب مصلحتهم وقد قبل معاوية وسلّم لابى ذر بذلك ولكن ليس أبو ذر أول من قال ذلك ونادى بهذه الفكرة ووجهة النظر فأموال بيت المال أموال الأمة بدون شك ولا يجوز للوالي التصرف الا فيما يصلح للأمة ويصرف على نفسه حسب حاجته كما فعل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ب ـ أما المسألة الثانية فهي مسألة الانفاق وهو وجوب نفقة مازاد على نفقة سنة، ولو رجعنا الى الشريعة لم نجد تحديدا للانفاق على مازاد، بل ان الشريعة تدل على اباحة التملك والادخار، وفرضت الزكاة على الاموال الفائضة المدخرة، وجعلت ذلك تطهيرا لها، ومجتمع الرسول ﷺ يشهد بذلك، ففيه الغني والفقير، وكذلك مجتمع الصحابة ولم يكن

---

(١) ذاتية السياسة الاقتصادية الإسلامية، ص ٤٦/٤٧.

(٢) في كتابه الاتجاه الجماعي في التشريع الاقتصادي الإسلامي ص ٤٤٣

الرسول ﷺ ولا خلفاؤه من بعده يعيبون على الاغنياء غناهم ولا طلبوا منهم انفاق جميع اموالهم.

ثالثاً ـ والرأي الذي نميل اليه :

ان أبا ذر لم يكن وحده في هذا الرأي حسبما رأى الدكتور النبهان ولكن من الذين يتفقون مع أبى ذر في الرأي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وعبد الله ابن عمر فانهم كانوا يعتقدون مع أبي ذر أن الزكاة وحدها لا تكفي الفقير ولكنهم يختلفون في تحديد المقدار الواجب ، فعلي بن أبى طالب يرى أن للفقراء في أموال الأغنياء ما يكفل لهم حياة خالية من الجوع والحرمان .

لكن أبا ذر كان يذهب إلى أبعد من هذا كما رأينا فهو يرى انفاق الفضل كلـه.

والذي لاحظناه من كلام المؤرخين من نقلهم للحوادث وتاريخ المجتمعات أن دعوة أبى ذر لفتت النظر ولا أدل على ذلك من نفي عثمان لأبى ذر إلى الربذة حين أحس بخطر دعوته.

وشيء آخر نضمه إلى هذا وهو ما ذهب إليه الدكتور إبراهيم اللبان[1] وهو أن دعوة أبى ذر هي ذات أثر بعيد لاسيما في شخصية هامة هي شخصية ابن حزم الذي رأى ان في المال حقا سوى الزكاة وأطال الكتابة في التكافل الاجتماعي[2].

فلهذا نرى ان لأبى ذر أثرا في المجتمع العملي فالذين اعجبهم اتجاه أبى ذرّ الشخصي عملوا بدعوته، والذين رأوا أثر دعوته العلمية زادوها وضوحا وعمقا

---

(١) انظر بحثه حق الفقراء في اموال الاغنياء مقدم الى المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية ص ٢٤٧ سنة ١٣٨٣ هـ ١٩٦٤م بالقاهرة.

(٢) انظر دراستنا عن ابن حزم.

في البحث وجعلوها منطلقا لكتاباتهم، وكان ابن حزم من أهمهم في تبني دعوة أبى ذر هذه[1].

أبو الدرداء رضي الله عنه[2] :

تقييد الكسب بالنفقة :

لأبي الدرداء رضي الله عنه مذهب عمل به في نفسه ولم يدع اليه الآخرين اذ يرى تقييد كسب الانسان بما يكفيه وعياله من ضروريات الحياة حتى يتفرغ للعبادة.

أ ـ فقد أخرج الطبراني عن خيثمة قال : قال أبو الدرداء كنت تاجرا قبل أن يبعث النبي ﷺ فلما بعث أردت الجمع بين التجارة والعبادة فلم يستقم فتركت التجارة وأقبلت على العبادة[3].

ب ـ وأخرج أحمد في كتاب الزهد[4] عن أبي الدرداء قال : ما أحب ان أبايع على هذا المدرج وأربح كل يوم ثلاثمائة دينار واشهد الصلاة في الجماعة

أما أنا لا أزعم أن ذلك ليس بحلال ولكني أحب ان أكون من الذين قال الله فيهم : « **رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله** »[5].

أثـــر دعوتـــه :

ويبدو أن وجهة نظر أبي الدرداء التي لم يخفها في نفسه قد وجدت قبولا

---

(١) انظر نظرية التوزيع للدكتور رفعت العوضي ص ٣٨١ طبع مجمع البحوث الإسلامية سنة ١٩٧٤م.

(٢) هو عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الانصاري الخزرجي أبو الدرداء صحابي من الحكماء الفرسان كان تاجرا قبل البعثة ثم انقطع للعبادة، ولما ظهر الإسلام، اشتهر بالشجاعة والنسك، ولاه معاوية قضاء الشام بأمر عمر بن الخطاب وهو أول قاض بها قال عنه ابن الجزرى صاحب الطبقات : أحد الذين جمعوا القرآن حفظا على عهد النبي ﷺ بلا خلاف، وروى عنه أهل الحديث ١٧٩ حديثا (الاصابة ت ٦١١٩، غاية النهاية في طبقات القراء ٦٠٦/١) (الاعلام للزركلي ص ٢٨١/٥ توفى سنة ٣٢ هـ).

(٣) نقل هذا الحديث : الامام السيوطي في تفسيره « الدر المنثور للتفسير بالمأثور جـ ٥ ص ٥٢ عند تفسير قوله تعالى (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله).

(٤) كتاب الزهد للامام أحمد بن حنبل ص ١٣٧ طبع دار الكتب العلمية لبنان د. ت.

(٥) سورة النور الآية ٣٧.

كبيرا من التابعين ومن جاء بعدهم من أهل العلم والورع بما في ذلك الأئمة الأربعة ومن اقتفى اثرهم في جمع العلم وبثه والعمل به، وكذلك أثرت في الزهاد والعباد أمثال ابراهيم بن ادهم وبشر الحافي وغيرهما.

وكان لابد أن يقتصدوا في الوقت الذي يصرفونه في طلب المعاش بقدر المستطاع ليتفرغوا لطلب العلم او تدريسه ابتغاء مرضاة الله بعد أن يحصلوا على ما يغنيهم ويعفيهم من النظر الى ما في أيدي الناس.

أما العُبَّاد بتشديد الباء وضم العين فقد قيدوا العمل بالقدر الضروري للحياة حتى يصرفوا جل وقتهم في ذكر الله، أما العلماء فلقد كان اثره قويا في نفوسهم حتى صاغه بعضهم[1] في صورة قانون قائلا : التفرغ للعبادة أفضل من الاشتغال للمكسب بعد ما حصل ما لابد منه[2].

والعلماء في الغالب أعجبهم مذهب أبي الدرداء، فقالوا أيضا : (ان الامتناع عن جمع المال أسلم وأورع) ولذا قال الامام احمد بن حنبل (في المترفين) الدنو منهم فتنة، والجلوس معهم فتنة، وقال انما قوى بشر بن الحارث لانه كان وحده و لم يكن له عيال وليس من كان معيلا كمن كان وحده ، لو كان إلّي ما باليت ما أكلت[3] .

نقد هذا الاتجاه :

أ ـ اذا كان من نقد لهذا المذهب فانه بربطه الكسب بالنفقة فقط، ولا يشجع العامل به على تحقيق فائض على ما يحتاج اليه في الحال او المستقبل القريب، أو بعبارة أخرى فهو يشبه مذهب أبي ذر رضي الله عنه من حيث لا يؤدي الى تراكم الثروة في أيدي أهل العلم والورع كما حدث في عهد الرسول ﷺ.

---

(١) هو الامام محمد بن الحسن الشيباني في كتاب الكسب، انظر ملخصه المطبوع بعنوان الاكتساب في الرزق المستطاب لتلميذه محمد بن سماعة المرادي.

(٢) الاكتساب في الرزق المستطاب ص ٢٦.

(٣) انظر كتابه الورع ص ٢٣.

ب ـ ونقد آخر نوجهه لهذا المذهب أنه يؤدي الى الانسحاب التدريجي لاهل العلم والورع من المساهمة في النشاط الاقتصادي الذي تنوعت اوجهه، واتسعت دائرته باتساع رقعة الإسلام واستقرار دولته، ونتج من ذلك ان وقع السوق والانتاج بجميع ضروبه في أيدي الذين لا يخشون الله كثيرا على الرغم من دراية بعضهم بالفقه، ومن ثم بدأت الممارسات الاقتصادية تبتعد رويدا رويدا عن روح الإسلام وتعاليمه حتى أصبح التحايل على أكل الربا والتهرب من اداء حقوق الله وذلك لغياب العلماء الورعين الذين يعرفون دائرة الحلال والحرام[1].

اتجاه عبد الله بن عمر بن الخطاب[2] (رضي الله عنه) :

عدم الحدّ من الثروة :

يقول الصحابي الجليل عبد الله بن عمر بن الخطاب : (ما أبالي لو كان عندي مثل أحد ذهبا أعلم عدده وأزكيه، وأعمل فيه بطاعة الله)[3].

وابن عمر في وجهة نظره هذه متأسياً بحديث الرسول ﷺ لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل واطراف النهار، ورجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق[4]. وبحديث الرسول ﷺ « نعم المال الصالح

---

(١) بحث الدكتور احمد صفي الدين عوض ص ٤٤، أصول الاقتصاد الإسلامي.

(٢) عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوى أبو عبد الرحمن صحابي من أعز بيوتات قريش في الجاهلية كان جهيرا نشأ في الإسلام وهاجر الى المدينة مع أبيه وشهد فتح مكة ومولده ووفاته فيها، أفتى الناس في الإسلام ستين سنة، وعرضت عليه الخلافة فأبى غزا افريقية مرتين الأولى مع ابن ابي سرح والثانية مع معاوية بن جدع سنة ٣٤، كف بصره في آخر حياته وهو آخر صحابي توفي بمكة من الصحابة له في كتب الحديث ٢٦٣ حديثا قال في الاصابة : قال أبو سلمة بن عبد الرحمن مات ابن عمر وهو في مثل عمر في الفضل وكان عمر في زمان له فيه نظراء وعاش ابن عمر في زمان ليس له نظير توفي سنة ٧٣ هـ بعد قتل ابن الزبير بثلاثة اشهر وقيل بستة اشهر « الاصابة » ٤٨٢٥، تهذيب الأسماء ٢٧٨/١ ، وفيات الأعيان ٢٤٦/١ ، وفيها وفاته ٦٣ هـ وهو ابن اربع وثمانين سنة ، طبقات ابن سعد ١٠٥ (الاعلام للزركلي مع مراجعه جـ ٤ ص ٢٤٦).

(٣) كتاب الزهد للامام احمد بن حنبل ص ١٩٥ مصدر سابق.

(٤) سنن ابن ماجه جـ ٢ ص ١٤٠٨. وانظر البخاري « جواهر البخاري ص ١٥٥ » مصدر سابق.

للرجل الصالح »[1] وبأحاديث أخرى كثيرة كلها تبين ان المال مهما كثر فهو من نعم الله إذا أدي حقه اذ كل مال أديت زكاته فهو ليس بكنز[2].

وابن عمر نفسه طبق هذه النظرة، فانه من أغنياء الصحابة بالفعل وقد انفق أغلب ماله في سبيل الله، فقد روى ميمون بن مهران ان عبد الله بن عمر أتته بضاعة قيمتها اثنان وعشرون الف دينار في مجلس واحد فلم يقم حتى فرقها[3].

وروى الامام في الزهد : عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ان ابن عمر باع أرضا له بمائتي ناقة فحمل على مائة ناقة منها في سبيل الله عز وجل[4].

فالحد من الثروة ومقدار الغنى لم يرد في الشريعة له رقم معين أو ضابط معين فشرط الثروة ان تصرف في وجه الخير وأن تكون جاءت عن طريق خير هذا هو أهم شروط كسب المال وانفاقه في الإسلام.

بين اتجاه ابن عمر واتجاه أبى الدرداء وأبى ذر (رضي الله عنهم) :

ان اجتهاد أبى الدرداء وأبى ذر رضي الله عنه لا يصلحان الا للقلة من أهل العلم والزهد واللائق بعامة المسلمين هو رأي ابن عمر، والاكثرية من صحابة رسول الله ﷺ كانوا كذلك فاذا أردنا ان نحقق النمو الاقتصادي وبالتالي رفاهة المجتمع وفق الاحكام والمبادئ الإسلامية التي تؤدي الى النتيجة الاقتصادية المثمرة فان اتجاه ابن عمر هو الذي يصلح ان يكون نموذجا لذلك.

فلا يضير المجتمع أن يكون بينهم غني وأن يكون بينهم فقير اذا احتفظ الغني بمسئوليته أمام الله في المال الذي اكتسبه وانفقه حسب الأمر الشرعي وزكاه الزكاة الكاملة واضاف لذلك الانفاق التطوعي فانه بهذا يحقق مبدأ التكافل الاجتماعي وينمو بالتجارة الى مكانها الصحيح ويحقق رفاهة اقتصادية بجهوده

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ورد هذا الحديث في مستدرك الحاكم بلفظ اذا أديت زكاته فليس بكنز، وقال صحيح على شرط البخاري جـ ١ ص ٣٩٠ وانظر للاستزادة فقه الزكاة للدكتور يوسف القرضاوي ص ٩٦٦ وما بعدها.

(٣) كتاب الزهد للامام احمد بن حنبل ص ١٩٣ / مصدر سابق.

(٤) كتاب الزهد للامام احمد بن حنبل ص ١٩٤ / مصدر سابق.

المتواصلة ليل نهار للمزيد من الكسب الذي يؤثر بالتالي على زيادة الانفاق في الوجوه الشرعية التي طلبها منه الشرع وأعلمه أن في المال حقا سوى الزكاة.

اتجاه الحسن البصري[1] (رحمه الله) :

دعوته للزهـد :

زهد الحسن في الدنيا في حياته ورسم طريقا لبناء الشخصية الزاهدة وكان يرى انه اذا تكونت الشخصية المؤمنة الزاهدة فقد تيسر التوصل الى صلاح المجتمع وتخليصه من الفساد الذي يسري في أوصاله. ومن خلال قراءاتنا عن الحسن البصري واستقرائنا لآرائه ومواعظه والتي كان أهمها موعظته لعمر بن عبد العزيز (رحمه الله)[2] نستنتج ما يلي :

أ ـ طريق السلوك الفردي / الشخصي :

١ ـ القناعة بالقليل والبعد عن الطمع وتمنى ما في أيدي الناس.
٢ ـ الصبر عند الحرمان وعدم الجزع.
٣ ـ الخوف من الله ومحاسبة النفس على ما قدمت من عمل، فالخوف حافز يدفع صاحبه الى العمل، ومن حاسب نفسه اصلحها وشغل نفسه عن عيوب الآخرين.

---

(١) الحسن بن يسار البصري أبو سعيد تابعي جليل كان امام أهل البصرة وحبر الامة في زمنه وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك ولد في المدينة وشب في كنف علي بن أبي طالب واستكتبه الربيع بن زياد والي خراسان في عهد معاوية، وسكن البصرة وعظمت هيبته في القلوب، فكان يدخل على ولاة الأمور فيأمرهم وينهاهم لايخاف في الحق لومة لائم ، وكان أبوه من أهل ميسان ، قال الغزالي : « كان الحسن البصري أشبه الناس كلاما بكلام الانبياء واقربهم هديا من الصحابة وكان غاية في الفصاحة تتصبب الحكمة من فيه وله مع الحجاج بن يوسف مواقف وقد سلمه الله من أذاه، وكتب اليه عمر بن عبد العزيز حين ولى الخلافة انى قد اتيت بهذا الأمر فانظر الى أعوان يعينوني عليه فاجابه الحسن) : أما أبناء الدنيا فلا تريدهم واما ابناء الآخرة فلا يريدونك فاستعن بالله » واخباره كثيرة.
(انظر في ترجمة الحسن البصري للدكتور احسان عباس / تهذيب التهذيب وقد كتبنا في آخر الدراسة المراجع للترجمة (الاعلام للزركلي مع مراجعه ٢/٢٤٢) .

(٢) هذه الموعظة طويلة جدا وقد رواها أبو نعيم في الحلية من ص ١٣٤ الى ص ١٤٠ جزء ٢.

ب ـ تنظيم علاقة الفـرد :

التضحية المادية.. فانفاق المال بسخاء في سبيل الله تتخلص النفوس من استعباده وتأتلف القلوب ويتعاون الافراد في الحياة العامة، وكان الحسن البصري يعتقد ان هذه الخطوات من أشق الامور على الانسان في زمانه لذلك أعلن ثوره عامة على أصحاب الأموال وهاجم الأغنياء وأصحاب الثراء في مواعظه وخطبه.

جـ ـ التـواضـــع :

فلا تبطر الانسان النعمة، ولا يدفعه ذلك الى التعالي على غيره، وقد ناقش الامراء ورجال الدولة والأغنياء الذين ارتقوا على أجنحة البذخ والاسراف فاتخذوا الحجاب والقصور وهذا مخالف سنة المصطفى ﷺ في التواضع حيث كان يجلس على الأرض ويلبس الغليظ من الثياب.

العوامل التي أثرت في سلوك الحسن البصري ودعوته للزهد :

١ ـ اتصاله بزهاد البصرة وتأثره بهم.
٢ ـ اتصاله ببعض الصحابة وتلقيه العلم عنهم، واطلاعه على سلوكهم وأحوالهم، وامتلاء نفسه اعجابا بهم.
٣ ـ تغير نفوس الحكام والولاة وتبدل أحوال معيشتهم، فقد رأى الولاة والحكام يتخذون الفراش الوثير ويستعملون اواني الذهب والفضة ويبنون القصور ويستخدمون الحجاب والحراس والشرط.
٤ ـ فساد المجتمع وانتشار الحرام بسبب كثرة المال وتنافسهم على كسبه وجمعه.

هذه في رأينا أهم العوامل التي دفعت بالحسن البصري الى الزهد فقد رأى فيه علاجا للنفوس التي استولى عليها حب المال وارضاء كبرياء النفوس الظالمة المستبدة.

كان الحسن البصري يرى الزهد وسيلة الاصلاح فأخذ نفسه به فزهد في الدنيا وظهر أثر ذلك في مطعمه وملبسه وحياته كلها وكان ينفق ما يرد اليه من مال قليل على أهله وأصحابه والفقراء ولا يدخر منه شيئا.

طرق دعوتـه للاصـلاح :

سلـك الحسن البصري عدة طرق للاصلاح نذكر منها :

١ ـ جعل من حياته وسلوكه الشخصي مثالا لما دعا اليه ليثبت للناس ان بلوغ الغاية امر غير مستحيل في الدنيا فلم يتقرب الى الحاكم ولم ينافق، ولم يسكت على منكر شاهده، ولا على ظلم صدر عن أمير أو غني.

٢ ـ دعا الناس الى الزهد وسلوك الطريق الذي سار فيه، وسلك طريق التعليم للناس وارشادهم بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر في مجالسه الخاصة وفي مجالس التعليم في المساجد وفي أحاديثه مع الولاة والحكام، كما قام بتربية فئة من طلابه تربية قوامها الايمان الصادق، والزهد والخوف من الله، وكان في وعظه فصيح اللسان، قوي الحجة، قوي الاسلوب، سيطر على عقول السامعين.

٣ ـ كتب رسائل وكتبا الى الخلفاء والولاة[1]، شرح فيها مسائل سئل عنها أو دعا من كتب اليهم الى مراقبة الله في اعمالهم والاحسان الى الناس، ومجانبة الظلم والاستبداد، ولم يترك الحسن البصري مؤلفات بل أمر بحرق جميع ما لديه من أوراق قبل موته ولكن كثيرا من رسائله حفظت عند تلاميذه أو عند من ارسلها اليهم.

أثر اتجاه الحسن البصري :

كان له رحمه الله منزلة عظيمة لدى رجال الدولة، منزلة لم يظفر بها غيره من العلماء والزهاد على كثرتهم في زمانه، ومرجع ذلك الى ايمانه العميق، وشخصيته القوية، وبصره بالمجتمع وامراضه وقوة تأثيره في نفوس طلابه وسامعيه وشجاعته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لهذا كان تأثيره على المجتمع

---

(١) وهذا أمر معروف ومشهود ولعل اهم موعظة له بعد موعظة عمر بن عبد العزيز كتابه لوالي العراق عمر بن هبيرة، وكتابه لخالد بن صفوان وانظر نماذج من وعظه ص ٤٥ الى ١٥٩ من حلية الاولياء لابي نعيم الاصفهاني ج ٢.

الذي عاش فيه كثيرا في جميع نواحيه، فقد وقف في وجه الولاة والحكام فخفف من غلوائهم في الظلم والاستبداد ، وعارض تيار استعباد المادة والانحطاط الخلقي الذي اصيبت به الأمة واستطاع بايمانه وعمله أن يصون عددا كبيرا من المسلمين من أن تجرفهم المادة وتستعبدهم الشهوات.

وتلاميذه وان لم يستطيعوا ان يحولوا التيار أو يوقفوه الا أنهم استطاعوا ان يبطئوا سيره، وان ينفذوا من لجيه من استمع اليهم وتأثر بدعوتهم.

لقد كان تلاميذ الحسن البصري خير تلاميذ اقتفوا آثاره وجعلوه قدوتهم في الزهد، وقوة العقيدة، والدعوة الى الخير والتذكير بالآخرة، وحقيقة الايمان.

وهكذا اتصل تاريخ الاصلاح والتجديد والدعوة الى الإسلام، وحلّ في نفوس معاصري الحسن البصري ومن بعدهم بمنزلة لا تدانيها منزلة . حتى ضرب به المثل في الزهد والعلم والشجاعة في قول الحق وزخرت بذلك الكتب وامتلأت بها الصفحات[1].

---

(١) هذا البحث كتبناه بعد ان استعنا بالمصادر الآتية :

- حلية الأولياء لابي نعيم من ص ١٣١ ـ ١٦١ / جـ ٢
- طبقات ابن سعد الكبرى جـ ٧ ص ١٥٦ وما بعدها.
- البيان والتبيين للجاحظ في ست صفحات متفرقة وهو من اهم المراجع.
- تهذيب التهذيب / لابن حجر العسقلاني جـ ٢٦٣/٢ وما بعده.
- دائرة المعارف الإسلامية جـ ٣٨١/٧ مع مصادرها.
- من سير المصلحين / على مصطفى صبري / من ص ٤٢/٢٣
- اصول الاقتصاد الإسلامي د. احمد صفي الدين جزء أول ص ٥٣.